

- ١٢ -

لكننا - بالطبع - لن نتناول على نفس القدر والمستوى الجوانب الأخيرة . من هذه المكونات ، بل سيكون تركيزنا أولا ، وبإحدى ذى بدء على تناول هذا الرجل ، من تلك الزاوية التي اجتمعت له على المستويين الأدبي والصحفي . أو الصحفي والأدبي ، وإن كنا نقول مقدما ونحاول أن نثبت ذلك خلال السطور القادمة ، أن هذه الجوانب الأخيرة نقبها ، جوانب التعدد في العلوم والمعارف بالقدر الذي جاءت عليه ، أو كان عليه صاحبها ، مما يثبت دعوى الجانب الصحفي عند الجاحظ .

بل اننى - فى هذا المجال - أذهب الى أبعد من ذلك فأقول اننى أزعج هنا أن أحدا من الأدباء أو المفكرين ، أو الفلاسفة ، أو الكاتبين ممن سبق الجاحظ بقليل من الحقب ، أو بكثير منها ، على المستوى العربى ، أو غيره ، عند المصريين القدماء ، أو أهل الساحل الفينيقي ، أو الاغريق أو الرومان أو الصين ، أو غيرها ، أزعج أن أحدا من مفكرى هؤلاء الأقوام وفى حدود علمى . لم يسبق الجاحظ الى هذا القدر من « الشمولية » والى هذه الدرجة من « الموسوعية » ، والى طريقتة وتعدد جوانبه . . .

فالبعض فى مصر القديمة . كان قصاصا ، يؤلف القصص الأسطورية أولا ، الذى انتقل من جيل الى جيل ، والبعض كان كاتب حكم ومواعظ ، يكتب ذلك اللون الذى يحث على عمل الخير ، ويحض على مراعاة القيم والمبادئ ، والبعض الثالث كان شاعرا - بنتنور وأتباعه - والبعض الرابع كان اعلاميا اخباريا عمل على أن تكون الأهرامات وجدران المعابد والهياكل والمسلمات والمقابر ثم الأحجار والجلود صحفه التى تلاثم عصره والبعض الخامس كان رحالة يكتب مذكرات رحلاته ، هذا كله فى مصر القديمة ، أما فى بلاد فينيقيا فقد ساد أدب البحر وسادت أساطيره وأغانيه وألوان « قولكلوره » . مع بعض القصص البحرية ، حقيقية أو خرافية ، وأما فى أمم الغرب القديمة ، فقد ساد الشعر ، خاصة شعر الملاحم ، والشعر التمثيلى ، والغنائى ، وسادت الخطابة ، وساد فن المسرح . وكان لكل رجاله الأقدان ، كانوا شعراء ، أو خطباء ، أو رجال أخبار فقط . . . ومثلهم كان عرب الجاهلية وصدر الاسلام . والا . فليدلتى أحدكم على رجل آخر سبقه ، يكون من طرازه .

لا أعرف أن أحدا منهم قد اجتمعت له كل هذه الصنوف والقطوف ،